الفصل الثالث عشر

قنبلة ذرية على مصر

- ☐ وزير خارجية إسرائيل: إننا نعمل بتركيز شديد لإسقاط عبد الناصر
- ☐ إنذار أمريكى للقاهرة: وقف حرب الاستنزاف فى الحال أو يتلقى الاقتصاد المصرى ضربات جوية قاضية
- ☐ من رئيس الولايات المتحدة إلى رئيس الاتحاد السوفيتى: سنستمر فى تقديم الأسلحة إلى إسرائيل.. ومصر هى المسئولة
- ☐ من رئيس الاتحاد السوفيتى إلى رئيس الولايات المتحدة: سنضطر إلى مد الدول العربية بما يمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس
- ☐ فرنسا تختلف مع أمريكا وتدين الغارات الإسرائيلية ضد مصر

obeikandl.com

بمجرد عودة عبد الناصر إلى القاهرة من موسكو بعد ظهر ٢٥ يناير دُعى مجلس الوزراء إلى جلسة طارئة فى اليوم التالى. حيث تم اعتماد ١١٠ ملايين جنيه من بند الطوارئ ليبدأ فورا بناء التجهيزات الجديدة، بمتوسط إنفاق ثلاثة ملايين جنيه يوميا، فيما أصبح سباقا مع الزمن من ناحية، وسباقا لضمان السرية من ناحية أخرى.

ولم يكن الأمر يتعلق بمجرد مواقع وتجهيزات جديدة، وإنما هذا كله يجرى وسط غارات جوية إسرائيلية مركزة، واستطلاع جوى لا يتوقف. وآلاف من المهندسين والجنود والعمال يتم حشدهم، ودفعات جديدة منهم تحل محل من يستشهدون، ومئات أخرى من الاحتياجات، لدرجة أن «إنشاء النطاقات الوقتية بين القاهرة وغرب القناة احتاج إلى ملايين من شكائر الرمل اضطرت مصر إلى استيرادها من الهند وباكستان والصومال فى وقت واحد وبسرعة» على حد تعبير الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

وبالرغم من اتخاذ وسيلة الأمان فى الإنشاءات.. وزيادة طلعات المظلات الجوية من طائرات ميج- ٢١ إلا أن العدو اكتشف اقتراب النطاقات الدفاعية للصواريخ سام- ٣ إلى منطقة غرب القناة فبدأ يركز على ضرب المواقع تحت الإنشاء التى تبنى بالاسمنت المسلح أو الحوائط مسبقة الصنع التى كانت تنقل من مصانع غرب القاهرة، وكانت قنبلة واحدة زنة ١٠٠٠ رطل تلقى على الموقع قبل تجفيفه فتبطل استخدام الموقع نهائيا ونضطر إلى اختيار موقع آخر قريب ونبدأ فى إنشاء موقع جديد، وبدأ الصراع بين لواءات الصواريخ سام ٣ والمدفعية ٢٣ م... وطيران العدو فى معارك تحولت بعد ذلك إلى معارك صواريخ سام- ٣.

وفيما بعد، حينما ستظهر النتائج عمليا فى ميدان القتال، فإن التقييم الإسرائيلى سيصبح هو أنه: «فى تلك النقطة جاءت نقطة تحول كبرى فى الشرق الأوسط من وجهة النظر التاريخية بزيارة ناصر السرية إلى موسكو، وما تلاها من وصول معدات وأطقم سوفيتية إلى مصر».

أما قبل أن تظهر تلك النتائج، فإن إسرائيل مستمرة فى غاراتها فى العمق المصرى بطائرات الفانتوم الأمريكية دون عقاب مصرى مؤثر، بينما المسئولون الإسرائيليون يعلنون صراحة أن هدفهم هو إسقاط نظام جمال عبد الناصر فى مصر.

وفـى الثالث مـن يناير ١٩٧٠ أعلنت جولـدا مائير أنها لا ترى فرصة للسـلام ما دام عبد الناصر فى الحكم، وبالتالى فان إسـقاط عبد الناصر والنظام كله الذى يمثله يجب أن يسبق أى حديث عن السلام.

وصرح أبا ايبان بما يفيد أن «بعض الجهات الأمريكية- يقصد كيسنجر ووكالة المخابرات المركزية- تعاتبنا على موقفنا السلبى فى الوقت الحاضر وتقاعسنا عن العمل الايجابى فى مصـر، وقـد طلبوا منا أخـيرا أن نركز جهودنا فى الفترة المقبلة على ما يؤدى إلى إسـقاط عبد الناصر شخصيا».

وكتبت جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية فى ١٨ يناير أن إسرائيل قررت إعطاء أولوية للحرب النفسـية (ضد مصر) وأن الهدف من هذه الحرب النفسـية مزدوج: أولا- إيصال الحرب إلى الشـعب المصرى.. وثانيا- تقويض القيادة المصرية وخلق انقسامات داخلية مما يؤدى إلى نتائج ملائمة بالنسبة لإسرائيل.

وفـى حديث دار بين أحد الصحفيين الغربيين وأبا ايبان وزير الخارجية الإسـرائيلى سـأله الصحفى عن سبب تركيز إسرائيل وأمريكا على جمال عبد الناصر شخصيا؟.. فقال أبا ايبان: «إننا نعمل بتركيز شـديد لإسـقاط عبد الناصر لأننا مقتنعون بأنه بعد سـقوطه سيهدأ الموقف مع مصر وسيتغير لصالحنا».

وفى ٢٩ يناير ١٩٧٠ نشرت النيويورك تايمز الأمريكية تصريحا جديدا لموشى ديان وزير الدفـاع الإسـرائيلى يقول فيه: «إن احد أهداف الغارات فـى العمق ضد مصر هو مواجهة المصريين بحقيقة الحرب، إننا نقول للمصريين: الآن انظروا هنا، إن قادتكم لا يفعلون بكم أى خير». ونفس النغمة كررتها جولدا مائير رئيسة الوزراء فى تصريحها لجريدة «لوموند» الفرنسية يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٠.

تحذير أمريكى لمصر وسوفياتى لواشنطن

وفى الثانى من فبراير وجهت الولايات المتحدة تحذيرا ضمنيا إلى مصر، ورد فى رسالة من الحكومة الأمريكية سـلمها دونالد بيرجس القائـم بأعمال رعاية المصالح الأمريكية فى القاهـرة، حيث توجه الحكومة الأمريكية نصحها إلى القاهرة بأن تعلن «فى الحال» قبولها بوقـف إطـلاق النار كما حدده قرار مجلس الأمن فى يونيو ١٩٦٧، وفى هذه الحالة يجب على مصر «ألا تربط قرار وقف إطلاق النار بالانسـحاب الإسرائيلى»، أما إذا لم تقبل مصر

ذلك «فإن الغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى سوف تستمر، وربما بصورة أكبر مدى ويتزايد ليشمل أهدافا تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية».

ويومها تجاهلت القاهرة تماما هذا التحذير الامريكى، وبالطبع لم تفكر لحظة واحدة فى الأخذ «بالنصيحة» الأمريكية بقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط.

لقد كان لدى القاهرة تفسيرها الخاص لتلك الرعونة الأمريكية المفاجئة، فقبل يومين اثنين- أى فى ٢١ يناير ١٩٧٠- وجه رئيس الوزراء السوفيتى اليكسى كوسيجين رسالة غير معلنة إلى الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون اتسمت لهجتها بتحذير غير مألوف من السوفيات من «استمرار إسرائيل فى مغامراتها» بقصف أراضى مصر والدول العربية الأخرى، لأن هذا يعنى أن الاتحاد السوفيتى «سوف يكون مضطرا إلى العمل على أن يكون لدى الدول العربية الوسائل التى تمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس».

وفى نفس الوقت بعث كوسيجين برسالتين مشابهتين إلى كل من الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو ورئيس الوزراء البريطانى هارد ويلسون.

وفى تلك الرسائل غير المعلنة، والتى يحتوى هذا الكتاب على صور لها، كان السوفيات يبلغون الولايات المتحدة بان ما تفعله إسرائيل قد وصل إلى النقطة التى ستجعلهم «مضطرين» إلى العمل، وبالطبع، سيجئ رد نيكسون بلهجة مماثلة محبذا العودة إلى وقف إطلاق النار والحد من التسلح فى المنطقة وبأن الولايات المتحدة «لن تتردد فى إمداد الدول الصديقة بالأسلحة» إذا اختل التوازن العسكرى النسبى فى المنطقة.

فرنسا ترد وتدين الغارات

جاء الرد البريطانى على الرسالة السرية التى بعث بها اليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى متماشيا مع الموقف الامريكى من تحميل مصر مسئولية حرب الاستنزاف الدائرة فى الشرق الأوسط، بينما جاء رد الرئيس الفرنسى مختلفا مع الموقف الامريكى البريطانى، وجاءت رسالة الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو الجوابية على النحو التالى:

«السيد الرئيس

«أشكرك على رسالتك التى تفضلت بإرسالها إلى فى ٢ فبراير وتتعلق بتفاقم الموقف فى الشرق الأوسط.

«اننى أشاركك القلق لتوسيع العمليات العسكرية فى هذه المنطقة من العالم. إن هذا يؤدى فقط إلى إشعال المناخ وإعاقة السعى إلى حل سلمى كانت فرنسا تسعى إليه دائما فى نشاطها».

«إن انتهـاكات الهدنة أيا كانت تتصادم مع القرارات التى تبناها مجلس الأمن كمرحلة أولى فـى ٦ و٧ و٩ يونيو ١٩٦٧، والأمر لا يحتـاج إلى القول بأن هذه القرارات تظل قائمة وتمثل أساسا لا غنى عنه بالنسبة لاى تسوية حقيقية».

«لقد عبرت حكومتى، كما عبرت حكومتكم، مرات عديدة عن أسفها من حقيقة أن تلك القرارات حظيت باهتمام قليل فى المنطقة ذاتها، لقد أشرنا بشكل متكرر إلى أن انتهاكات الهدنة قد تؤدى إلى تصعيد للعنف لا يمكن التحكم فيه، وكذلك إلى تهديد السـلام، وفى كل مناسبة أكدنا على الحاجة الماسة للحل السياسى».

«إننـى أؤمن بـأن الموقف الحالى يدلل على ضرورة الاسـتمرار بتصميم فى الجهود التى يقوم بها الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن بنيويورك من أجل وضع مشـروعات مشـتركة حـول شـروط تنفيذ قرار ٢٢ نوفمـبر ١٩٦٧ (القرار رقـم ٢٤٢)، وفـى الحقيقة فإنه من الضرورى اسـتئناف المهمـة التى أناطها القرار بممثل السـكرتير العـام للأمم المتحدة فى المستقبل الوشيك».

١٠٠ طائرة ميج لليبيا

وفى تلك اللحظة كان هناك داخل الإدارة الأمريكية من يرى أن التوازن العسكرى اختل بالفعل- ليس بسبب المدى الذى سيتطور إليه الدفاع الجوى المصرى.. وهو أمر لم يكن قد عرف بعد- ولكن بسبب صفقة عسكرية شديدة الأهمية أبرمتها فرنسا- وليس السوفيات.

ففى نفس الشهر يناير هذا سنة ١٩٧٠ أعلنت فرنسا عن إبرام صفقة مع النظام الجديد فى ليبيا تتضمن توريد مائة طائرة «ميراج» إلى ليبيا على امتداد أربع سـنوات، ولقد أدى هذا إلى إخراج الولايات المتحدة من الاتفاق على الحد من التسلح فى الشرق الأوسط. وكان معنى هذا الطلب أن يتوقف الاتحاد السـوفياتى عن إمداد مصر أساسـا بالأسلحة اللازمة لتحريـر أراضيهـا المحتلة، ونتيجته هى اسـتمرار إسـرائيل فى هـذا الاحتلال إلى ما لا نهاية.. طالما هى تتمتع بتفوق عسـكرى- خصوصا بالنسـبة للطيران، والآن فرنسا- وهى الدولة الحليفة- كى تسجل عمليا اعتراضها على سعى السياسة الأمريكية لإضعاف العرب لمصلحة إسرائيل.

ومـن ناحية أخرى، فإن نظـام الحكم الجديد فى ليبيا أعلن من البداية ارتباطه بجمال عبد الناصر فى مصر، وفى ظل التأكد الأمريكى من إصرار عبد الناصر على الحل العسكرى.

فلابد أن تجد تلك الطائرات الفرنسية المتطورة الجديدة إلى ليبيا.. طريقها فى النهاية إلى الجبهة المصرية.

وحينما تلقى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون تلك الرسائل التحذيرية من رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجن فى ٢١ يناير ١٩٧٠، فإنه اضطر خلال مؤتمر صحفى عقده فى نفس اليوم إلى الإعلان عن وجود خلاف بين واشنطن وباريس بسبب صفقة طائرات الميراج إلى ليبيا، مضيفا قوله: «إننى أخشى من استخدام هذه الطائرات فى الحرب الدائرة فى الشرق الأوسط».

رسالة من نيكسون إلى كوسيجين

ويومها لم يناقش نيكسون مضمون رسالة كوسيجين لأنها لم تكن معلنة، لكن هنرى كيسنجر- مستشار نيكسون للأمن القومى- اعتبر على الفور أن تحذير كوسيجين «هو أول تهديد سوفيتى» للإدارة الأمريكية فى ظل رئاسة نيكسون، وهو الأمر الذى يتطلب «ردا حازما». واتخذ هذا الرد «الحازم» طريقين.. فالطريق الأول هو تهديد مصر صراحة- من خلال الرسالة التى نقلها دونالد بيرجس فى ٢ فبراير- بالمزيد من الغارات الجوية الإسرائيلية.. وضد أهداف «قد تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية». والطريق الثانى من خلال الرد الذى بعث به نيكسون إلى كوسيجين فى الرابع من فبراير، ويتهم فيه مصر بأنها هى التى تعمدت إشعال دائرة التصعيد العسكرى فى ١٩٦٩.. وإن الولايات المتحدة ترقب بعناية التوازن النسبى فى الشرق الأوسط، ولن تتردد فى تقديم الأسلحة إلى الدول الصديقة إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك.

وحينما لم تنخلع القلوب فى القاهرة من التهديد الامريكى، ولا اهتزت شحنات السلاح السوفياتى إلى مصر نتيجة التحذير الأمريكى.. أصبح لابد من التفكير بمزيد من الهدوء داخل الإدارة الأمريكية.

لقد كتب هنرى كيسنجر مذكرة إلى الرئيس نيكسون يقترح فيها أن تعلن الولايات المتحدة إصرارها على وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط بين مصر وإسرائيل. و: «هكذا يكون الرد المضاد على التحرك السوفياتى هو إلقاء تبعة وقف إطلاق النار على عبد الناصر والعرب، ومن خلالهم تلقى التبعة على السوفيات أنفسهم، وليس علينا، ولا على الإسرائيليين».

وحينما سمع السفير الامريكى فى موسكو رد أندريه جروميكو وزير الخارجية فى ١١ فبراير أدرك على الفور أن السوفيات غير مهتمين بالمرة بتلك الأفكار الأمريكية.. فالاتحاد

السوفياتى لا يستطيع أن يبحث وقف إطلاق النار، ولا حتى أن يفاتح مصر بشأنه، ما لم تكف إسرائيل أولا عن الغارات ضد المدنيين فى العمق المصرى (ولم يقم جروميكو بإبلاغ السفير الامريكى يومها بأن مصر أخطرته بالفعل بأنها ترفض جملة وتفصيلا وقف إطلاق النار ما لم تعلن الولايات المتحدة.. رسميا وبالتحديد.. موقفها من الالتزام بالانسحاب من الإسرائيلى الكامل من الاراضى العربية المحتلة). أما بالنسبة لبحث الحد من صادرات الأسلحة فى الشرق الأوسط، فان الاتحاد السوفياتى لا يعارض مناقشة المبدأ ولكن ليس فى ظل استمرار الاحتلال الإسرائيلى للاراضى العربية.

وبدأت تتراكم نذر أخرى بالمزيد من الخطر، إن التقارير ترد من المخابرات الأمريكية إلى كيسنجر بشأن زيارة سرية قام بها جمال عبد الناصر مؤخرا إلى موسكو (وهى التى كانت قد تمت فى ٢٢ يناير).. والى وجود دلائل مبكرة- وان لم تكن محددة- بوجود استعدادات سوفيتية لتصعيد مستويات الدعم العسكرى إلى مصر بشكل يختلف عن المستويات السابقة.

كيسنجر يستدعى رابين

وعلى الفور استدعى كيسنجر السفير السوفياتى فى واشنطن، دوبرينين، لكى يقول له باسم الرئيس نيكسون: «إننا نريد من الزعماء السوفيات أن يعرفوا أن إدخال جنود مقاتلين سوفيات إلى الشرق الأوسط- يقصد مصر- سوف ينظر إليه هنا بأخطر درجات القلق..».

وقال كيسنجر أيضا: إننا اخترنا هذا الأسلوب فى الاتصال لأننا لا نريد مواجهة رسمية، وفى نفس الوقت فإننا نرغب فى أن تجرى بيننا، عبر القنوات الخاصة، مناقشات ثنائية جديدة حول الشرق الأوسط. لكن السوفيات ظلوا لنحو شهر بعدها لا يهتمون بمجرد الرد على تلك الرسالة الأمريكية.

ومع المزيد من تقارير المخابرات الأمريكية، كان كيسنجر يزداد غليانا، لقد تشكلت مجموعة عمل خاصة فى مجلس الأمن القومى الأمريكى لبحث الموقف على ضوء هذا التطور الجديد الذى لم تتضح كل أبعاده بعد، وهو ذهاب وحدات مقاتلة سوفيتية للدفاع الجوى إلى مصر.

وفى تلك الاجتماعات كان كيسنجر يلح على انه: «إذا ادخل السوفيات قوات عسكرية»، (إلى مصر) فلن يصبح أمامنا خيار سوى المقاومة، فليس فى وسعنا أن نقبل بوجود عسكرى

سـوفيتى جديد، كما أننا غير مسـتعدين لرؤية المتطرفين العرب (يقصد عبد الناصر) وقد حصلوا، ربما، على دفعة حاسمة.

ويقرر كيسنجر صراحة أنه طلب فى تلك الاجتماعات التخطيط لعمل رد انتقامى أمريكى ضد السـوفيات، ولكن: «كانت جميع الوزارات فى الولايات المتحدة أقل حماسا، فمعظم من هم فى الحكومة ألقوا اللوم على التعنت الإسـرائيلى باعتباره سبب تجميد الموقف، إن الجميع- باستثنائى أنا- كانوا مقتنعين بان قيامنا بإعطاء معونة (عسكرية) ضخمة جديدة إلى إسـرائيل يمكن فى هذه الظروف أن ينسـف المنطقة ويحولها إلى شظايا، أما عن خطط الطـوارئ، فـإن أحدا لم يسـتطع أن يفكر فى عذر مقبول لمقاومة الجهد الذى يسـتهدف الإعداد للمسـتقبل، ولكـن.. كان من الواضح أن القيام باى عمل عسـكرى مضاد لتحرك سوفيتى كبير سوف يصطدم بمقاومة بيروقراطية مكثفة».

ويضيف كيسـنجر فى الجزء الأول من مذكراته بعنوان «سـنوات البيت الأبيض» قوله: «إن وزارة الدفـاع الأمريكيـة قدمت مذكرة رسمية تؤكد فيها علـى أنها تفضل اللجوء إلى اختيـارات سياسـية، مما يعنى- كما هو الحال فـى فيتنام- أن وزارة ما أخرى يجب أن تتحمل العبء والمخاطرة، ولم تفسـر المذكرة الكيفية التى سـتحقق بها انسحابا إسرائيليا كاملا- وهو الاختيار السياسـى الوحيد المطروح على المائدة- أو الكيفية التى لن يبدو فيها هذا الانسحاب نتيجة لضغط سوفيتى فى حالة ظهور أفراد مقاتلين سوفيات فى المنطقة».

فى رد نيكسون على إحدى مذكرات كيسنجر، سجل الرئيس الأمريكى التأشيرة التالية: «على رغم أن السياسة المتوازنة هى الصواب، إلا أن مصلحتنا فوق كل شىء، وتكمن فيما يثير للسوفيات أشد المتاعب، لا تدعو النزاع العربى الإسرائيلى يحجب هذه المصلحة».

خلافات بين نيكسون وكيسنجر

لكن الذى كان يجعل كيسنجر يغلى من الغيظ تماما، هو أن اقتناع الرئيس نيكسون بوجهة نظر خبراء وزارة الخارجية- وليس وجهة نظره هو- بشـأن تفسير تزايد النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط، وخصوصا منذ تصاعد حرب الاستنزاف المصرية فى مارس سنه ١٩٦٩، إن كيسـنجر كان يلح على فكرة أن مضاعفة المسـاعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل هو الذى يحبط مصر، وبالتالى يرغمها على تقليل اعتمادها على الأسلحة السوفيتية، مما يؤدى إلى فى النهاية إلى تراجع النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط.

وردا علـى مذكرة قدمها كيسـنجر وكرر فيها مزاعمه تلك، كتب الرئيس نيكسـون فى تأشـيرته: «إننى اختلف تماما مع هذا الاسـتنتاج.. لقد كنا نتباهى بـ «هزائم» السوفيات فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٦٧، وقالت وزارة الخارجية أن حرب (١٩٦٧) كانت هزيمة للسـوفيات، إنها لم تكن كذلك، فقد أصبحوا أصدقاء للعرب، والولايات المتحدة عدوهم، واستمرار هذه الحالة على المدى الطويل يخدم مصلحتهم».

وفى اللحظة الراهنة كان كيسـنجر يعتمد على إسرائيل، بأكثر مما هو يعتمد على إقناع رئيسـه، فى إثبات إمكانية خضوع مصر لسياسة «العصا الغليظة» حتى تذعن لقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شـرط، خصوصا وأن إسـرائيل لها اليد العليا فى السيطرة الجوية، وامتدادا لكيسـنجر، استمر إسـحاق رابين السفير الإسرائيلى يهنئ نفسه وحكومته، قائلا فى برقية سرية بعث بها إلى جولدا مائير: «لقد انجزنا تحسنا ملحوظا فى موقف الولايات المتحدة، إن استمرار هذا التحسن يعتمد أولا وقبل كل شىء على استمرارنا فى شن غاراتنا الجوية فى قلب مصر».

تصعيد الغارات ضد المدنيين

وهكذا، بمجرد أن بدأت تقارير المخابرات الإسـرائيلية عن دلالات شـحنات السـلاح الجديدة إلى مصر، بدأت إسرائيل تتصاعد بغارتها ضد المدنيين فى العمق المصرى، لتتخذ طابعا هستيريا ومحموما، وفى سباق إسرائيل مع الوقت لمنع الصواريخ الجديدة من اتخاذ مواقعهـا طبقـا للخطة المصرية، زادت من توحشـها ضد المدنيين داخـل مصر، ففى ١٢ فبراير (١٩٧٠) اسـتخدمت إسرائيل طائرات الفانتوم فى الإغارة على مصنع مدنى فى أبو زعبل على مشـارف القاهرة، توقيت الغارة محسوب، فى المصنع ورديات تتناوب العمل، كل ورديـة مـن ألفى عامل يأتون وينصرفون فى مواعيد محـددة بقطار محدد، والطائرات الإسـرائيلية تسـتهدف إلقاء حمولـة المتفجرات على العمال فـى الدقائق التى تجمع بين انصـراف ورديـة وقدوم وردية أخرى، هذا كان يعنى أن الهـدف هو أربعة آلاف عامل.. مدنى.. أقصى أنواع الإرهاب.. ضد المدنيين لكن أسـفرت الغارة البشعة عن مصرع سبعين عاملا وإصابة ٦٩ بجراح، ثم خرج موشـى دايان وزير الدفاع الإسـرائيلى ليقول إن هدفه من هذه الغارات الإسـرائيلية بعيدا عن جبهة المواجهة الفعلية فى قناة السـويس هو: «أن يحافظ على معنويات الشعب الإسرائيلى وتقويض الزعامة السياسية والعسكرية فى مصر»..

وإزاء الاستنكار الدولى لتلك الجريمة البشعة وغير المسبوقة اضطرت إسرائيل إلى الزعم بأن الغارات وقعت بطريق الخطأ!.

وفى ٨ ابريل أغارت إسرائيل على مدرسة فى قرية بحر البقر بالصالحية، فراح ضحيتها ٣١ قتيلا و٢٦ جريحا من أطفال المدرسة، ومرة أخرى واجهت إسرائيل الإدانة العالمية ضدها بإنكار وقوع الغارة من أساسها، ثم اضطرت إلى التراجع عن إنكارها حينما انتقل المراسلون الأجانب فى مصر إلى مكان الغارة وسجلوا آثارها.

وبالتدريج، مع استكمال نطاق الصواريخ الأول الذى يحمى العمق المصرى، واكتشاف إسرائيل لهذا التطور بدأت قلوب القيادات العسكرية هى التى تنخلع نتيجة لأن قدراتها على التوحش ضد المدنيين فى مصر بدأت تتراجع شيئا فشيئا، والسفير الإسرائيلى إسحاق رابين منتفخ الأوداج بدا يتراجع، مسجلا: «إننا مع نهاية شهر مارس ١٩٧٠ أصبحنا مضطرين إلى وقف غارتنا فى العمق (المصرى) لأن بطاريات صواريخ سام- ٣ تم وضعها حول مدن مصر الرئيسية». هكذا تم إذن قطع الذراع الطويلة لإسرائيل ضد المدنيين المصريين بشكل تدريجى، ولكن إسرائيل سوف تستمر لبعض الوقت فى محاولاتها، إلى أن تجد تفسيرا ملائما تروجه لحقيقة اضطرارها أخيرا إلى وقف التوحش ضد المدنيين المصريين بعد أن حولت طائرات الفانتوم لديها إلى «مدفعية طائرة» على حد تعبير جولدا مائير لكى تسقط قذائفها على «عتبات المصريين» فى بيوتهم.

ما يعادل قنبلة ذرية

أما بالنسبة للأهداف العسكرية المصرية غرب القناة فقد تزايدت- عددا وكثافة- بشكل جنونى، بعد أن أصبحت ترى بمعدل أربع غارات يوميا بطائرات الفانتوم وسكاى هوك حيث تقذف «أكثر من عشرة آلاف طن متفجرات يوميا، وخلال يومى ١٤ و١٥ ابريل وصل قذف العدو إلى معدل تأثير قنبلة ذرية زنة عشرين ألف طن على المنطقة، التى شملت بالذات منطقة رقبة ألوزة أيضا التى نجحت فيها قوات الجيش الثانى وكتائب الصاعقة فى تدمير قوات العدو والحصول على أسرى أحياء فى ذلك الوقت، واستمر العدو فى غاراته المركزة ضد مواقع الصواريخ مستخدما أكفأ طياريه وطائراته الحديثة طراز سكاى هوك والفانتوم فى سباق مع الزمن ضد صواريخ سام- ٢٣ مم الرباعى الموجه والمدافع ٢٣مم الرباعى الموجه وصواريخ سام- ٧، والإرادة وقوة العزيمة من المصريين القائمين على استكمال مواقع الصواريخ حتى نهاية يوليو ١٩٧٠».

وكانت كل شبكات التجسس الإسرائيلية والأمريكية فى تلك الفترة معبأة بالكامل لرصد أى معلومات عن مواقع الصواريخ المصرية الجديدة أولا بأول، وفيما بعد صور فيلم مصرى بعنوان «الصعود إلى الهاوية»، وهو قصة شبكة واحدة من التجسس أدت معلوماتها إلى استشهاد مئات من المصريين فى مواقع الصواريخ الجديدة، كما سقطت شبكة أخرى من الجواسيس تسربت إليها خريطة أحد مواقع الصواريخ بواسطة قريب مقاول مشهور جرى احتجازه فى حينها لبعض الوقت.

رجال اليوم السابع

فى الواقع لم تكن عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصرية ترتكز على جانب الأسلحة والمعدات فقط، إنما كان هناك ما أسميه فى قاموسى الخاص «جيش اليوم السابع» جيش قامت مصر ببنائه مقاتلا مقاتلا وطوبة طوبة، وسلاحا بعد سلاح.

وكل مقاتل فى هذا الجيش، من أكبر ضابط إلى أصغر جندى، ظل سنة بعد سنة يرى زملاءه المقاتلين أضعاف أضعاف ما يراه من أسرته، ويأكل معهم فى الخنادق طعاما لا يعرف مطلقا إذا كان سيعيش بعده حتى الوجبة التالية أم لا.

رجال ومقاتلون عرفوا وبثمن فادح وبغير فذلكة ولا بغبغة أن مصير الوطن.. بل والعروبة.. كلها يتوقف تماما على مدى إيمانهم وإصرارهم، هناك جولة خسرناها بطريقة مفجعة سماها العدو دعائيا «حرب الأيام الستة» الآن هو اليوم السابع، وهؤلاء مقاتلوه، إن كل الأيام تساوى ٢٤ ساعة، لكن فى حياة الشعوب تصبح بعض الأيام أطول أو أقصر من الأيام الأخرى، والفترة من اليوم التالى للهزيمة المدوية فى يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير لتحرير الأرض هى بذاتها يوم واحد متصل، إنه اليوم السابع، وكان الجيل الذى انتمى إليه هو ذاته العمود الفقرى لتلك الحرب، جيل من المتعلمين وخريجى الجامعات الذين أصبح الجيش بكل فروعه يطلبهم بشكل فورى، ولحسن حظ العروبة فإن هذا الجيل كان أول إنتاج متراكم لنهضة كبرى بدأت قبلها بسنوات، نهضة عنوانها: مجانية التعليم.

وإذا كانت دفعتى فى الدراسة مجرد نموذج هنا، فإن سبعين فى المائة منها على الأقل استمروا مجندين، جنودا وضباطا، فى يوم واحد متصل ما بين يونيو١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣، ولولا أنه كان هناك إصرار على أن تمضى الحياة المصرية، زراعة وصناعة واقتصاد ومرافق، كالمعتاد، فربما كان سيتم تجنيد مائه فى المائة من خريجى الجامعات، لكن الجيوش الحديثة لا تصبح حديثة من فراغ، إنها تعتمد على- وتعيش من- اقتصاد حديث أيضا.

وإذا كان سبعون فى المائة من دفعتى الجامعية أصبحوا مجندين فى هذا «اليوم السابع» فإن الثلاثين بالمائة الأخرى كانوا مجندين بشكل مختلف، الأولون يرتدون الكاكى والآخرون بملابسهم المدنية لكن هذا الخريج الجامعى بالملابس المدنية كان يدير حياته فى حدود مرتبه المتواضع، والمرتب متواضع ليس لأن جهده متواضع ولكن لأنه يتقبل حقيقة أن عليه أن يعيش فقط على الضروريات، لأن زميله فى جبهة القتال يشارك فى تحقيق المستحيل.

والمستحيل كان هو أن يصبح لمصر جيش عصرى، والاستحالة هنا طبيعية لأن مصر تتاح لها فقط ربع ساعة حرية فى كل قرن وإذا لم تستثمر مصر ربع الساعة هذه بسرعة فى بناء جيش حديث تواجه به أطماع الوحوش الكاسرة فى الغابة الدولية يصبح مصير مصر هو الاضمحلال، هكذا التاريخ المصرى فى حالته الدرامية، فمصر إما فى القمة وإما فى الحضيض ولا وسط.

عقل كبير فى قضية أكبر

مرة أخرى نحن فى الإعداد الجيد للحرب التى قررت مصر أن تخوضها لاستعادة الأرض المحتلة وبدأت فى إعداد الجيش القادر على استعادة الأرض، ومن بين القرارات التى اتخذت فى ذلك الوقت قرار كان ملفتا فى وقتها، لقد قرر جمال عبد الناصر أن يصبح للدفاع الجوى المصرى قيادة مستقلة فى القوات المسلحة واختار محمد على فهمى مسئولا أول عن تلك القيادة والصورة الوحيدة المنشورة له وقتها هى صورته وهو يقابل جمال عبد الناصر والى جواره الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

تسلم إذن محمد على فهمى المسئولية وكانت هناك نكسة كبرى سجلت فيها إسرائيل انتصارا مدويا، والقضية التى أجمعت عليها مصر كلها هى ببساطة أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» والقوة ليست سلعة متاحة فى محلات البقالة ودواء متوفرا فى الصيدليات، القوة هى نحن، هى ما نصنعه، هى ما نختطفه وسط غابة دولية لسنا أقوى وحوشها، وإسرائيل بعد انتصار مدو أصبحت تستبيح سماء مصر بطائراتها الأمريكية، والغابة الدولية لا تتيح سلاحا بسلاح، والمتوحشون فى الغابة الدولية يقامرون على الوقت.. على الزمن.. فبالمزيد من الوقت والغارات الجوية المتوحشة على المدنيين من أطفال فى مدارسهم وعمال مدنيين فى مصانعهم.. لابد أن تستسلم مصر.

ولأن الاستسلام يبدأ من الروح فقد جرى تكليف العميد- وقتها محمد على فهمى بإنشاء سلاح جديد اسمه «الدفاع الجوى».. لكى يتكامل مع أسلحة المشاة والبحرية والطيران.. لم تكن المسألة هنا هى فقط أن تمتلك مصر قوة عسكرية رابعة ضمن قواتها المسلحة. كانت المسألة أساسا هى قطع اليد الإسرائيلية الطويلة.. يد الطائرات التى تستأسد يوميا ضد المدنيين فى مدن مصر وقراها.. بمن فيهم أطفال مدارس لم تستوعب عقولهم البريئة- بعد- أى شىء عن العدوان والتوحش الإسرائيلى. وأصبحت مشكلة محمد على فهمى هنا مشكلتين.. فهو القائد فى عملية كبرى صامته لإعادة بناء دفاع جوى حديث لمصر لن يعرف العالم بها إلا حينما تدخل- فيما بعد- فى مرحلة بناء حائط الصواريخ.. وهو أيضا يفعل ذلك فى ظل غارات جوية إسرائيلية يومية وعلى مدار الساعة.

ويوما بعد يوم.. وليلة بعد ليلة.. وشهداء بعد شهداء.. بدأ الشعب المصرى يستوعب لأول مرة ماذا يعنى بالضبط «دفاع جوى». الألفاظ واضحة، دفاع جوى، لكن بحلول الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٧٠ بدأت إسرائيل تدرك أن تطورا خطيرا قد حدث، تطور سيغير مسار الحرب الدائرة بل فى المنطقة كلها خلال ذلك اليوم السابع.. الطويل.

فى حرب «الاستنزاف» لم تكن لدى مصر- خصوصا المقاتلين فى القوات المسلحة- أية أوهام، هناك غابة دولية ونحن لسنا أقوى وحوشها، والوحوش الأكبر لكل منها حساباتها ومصالحها، من تلك المصالح مثلا أن تكفل الولايات المتحدة لإسرائيل، المغتصبة والمعتدية، تفوقا كاسحا فى الأسلحة على الدول العربية مجتمعة، وخصوصا فى الطيران، وإسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكية تقوم باختراق المجال الجوى المصرى فى العمق لكى تروع شعبها وتفقدهم أى أمل فى قوتهم المسلحة الجديدة، فى المقابل تملك مصر طائرات «الميج» السوفيتية الصنع، طائرات جيدة ولازمة وبنت حلال وتوجع العدو أيضا لكنها فى نهاية المطاف لا تتيح للطيار المصرى نفس الإمكانيات المتاحة أمريكيا لدى الطيار الإسرائيلى.. والاسوأ من ذلك.. ليس مسموحا فى الغابة الدولية أن نحصل على أية طائرات من أى مكان آخر.

فى مثل هذا الموقف هناك حلان لا ثالث لهما: نقفل الملف.. أو تفتح الملف.. فى حالة قفل الملف تصبح الخلاصة هى أن إسرائيل مستمرة فى الاحتلال ومصر فى «الطراوة»، بل.. ولاحتى فى «الطراوة» مصر عليها فقط، وبعدها كل العرب.. الانتظار إلى جوار التليفون حتى يملى عليها وزير الدفاع الإسرائيلى المطلوب منها ثمنا للهزيمة، فى حاله فتح الملف تصبح الخلاصة هى: نضرب.. وننضرب.. نقع.. فنقوم من جديد، يضربون لنا أطفالا

صغـارا فى بحـر البقر فنضرب لهم طيارين بطائراتهم، هنا يصبـح للدفاع الجوى بقيادته الجديدة المسـتقلة حديثا محل من الأعراب، ما يـزال على الورق اسمه دفاع جوى، لكنه فى حروب «اليوم السـابع» المصرية أصبح دفاعا جويا فى مهمة أولى فعلية أن تقطع ذراع إسرائيل الطولى المستأسدة ضد الأطفال المصريين فى بحر البقر والعمال فى مصنع أبو زعبل وغيرها، لكن تلك فقط كانت مقدمة للمهمة الأكبر: حماية القوات العابرة لتحرير سيناء.

بكلمات أخرى، أصبحت إسرائيل- طوال حرب «الاستنزاف»- تريد أن تقول للعسكرية المصريـة، لـكل حل.. مشـكلة، بينما العسـكريون المصريون عليهم أن يثبتـوا انه: لكل مشكلة.. حل.

بكلمات أخرى وأخرى..هناك امتحان كبير وفاصل للإرادة والعسـكرية المصرية وكانت النتيجة أن اسـتطاعت هذه الإرادة أن تفجر جوهر الإنسـان المصرى وتعلم العالم دروسـا جديدة فى العسـكرية، فى هذه المرة محور الدروس الجديدة هو: كيف تستطيع الصواريخ ارض/ جو والأسـلحة المضادة للدبابـات القيام بإذلال وقهر أحـدث الطائرات والمدرعات المتاحة لإسرائيل.

عـدت مرة أخـرى إلى المجلد الذى صدر فى الغرب بعنوان «التاريخ العسـكرى للعالم» الـذى كنت قد تصفحته بسـرعة ثم توقفت مرة أخرى عنـد أحد فصوله بعنوان «الحروب العربية الإسرائيلية» الكتابة متحاملة ومنحازة ومن منظور موجه أساسا إلى القارئ الغربى، وتأكدت من أسماء مؤلفيه من الخبراء العسـكريين، تأكدت مرة أخرى من البيانات، هذه ليسـت رواية، ليست إبداعا من خيالات مؤلف، إن «إذلال» و«قهر» هنا تعبيران محددان تمامـا ومقصـودان حرفيا ومن خبراء عسـكريين غربيين وبعد سـنوات طويلة من- حرب الاستنزاف- هنا تصبح الترجمة من الإنجليزية إلى العربية هى: محمد على فهمى.

وعندما نجحت مصر بالوصول بحائطها الصاروخى إلى أقرب نقطة من قناة السـويس، وفى أسـبوع واحد- سمى عالميا: أسبوع تساقط الطائرات- أسقطت الصواريخ المصرية ١٧ طائرة إسـرائيلية من طراز فانتوم وسـكاى هوك، ووضعت مصر أيديها على تسعة طيارين إسـرائيليين أحياء، ووقف أبا أيبان وزير خارجية إسـرائيل يتكلم بمرارة فى الكنيسـت الإسرائيلى قائلا: «الموقف خطير خطير، لقد بدأ سلاح الطيران الإسرائيلى يتآكل».

هنا يصبح ما قاله أبا أيبان وما عبر من خلاله عن مخاوفه من تآكل فى سلاح الطيران كان لـه عنوان واحد بين رجال القوات المسـلحة المصرية: محمـد على فهمى.. والإرادة

المصرية، وأن تغيرا فعليا فى مسار- حرب الاستنزاف- قد بدأ وأن نقطة تحول كبرى فى مسار الحرب قد حدثت، وعرف المصريون لأول مرة معنى وطعم أن يكون لديهم دفاع جوى، وإن التضحيات التى حدثت، والشهداء الذين قدموا أرواحهم من أجل استكمال بناء هذا الحائط لحماية العمق المصرى والمدنيين والأطفال من غطرسة ووحشية العدو لم تذهب سدى.

أما بالنسبة لمحمد على فهمى نفسه فقاموسه الخاص ليس فيه بالمرة كلمة «أنا» فيه فقط «نحن» يتكلم عن: جنودنا المهندسين جيشا وطيرانا.. مدفعيتنا.. شهدائنا.. صواريخنا.. و.. و.. كلها تنويعات وتنويعات للعنوان الرئيسى «نحن» الذى هو ببساطة «مصر».

□□□

obeikandl.com